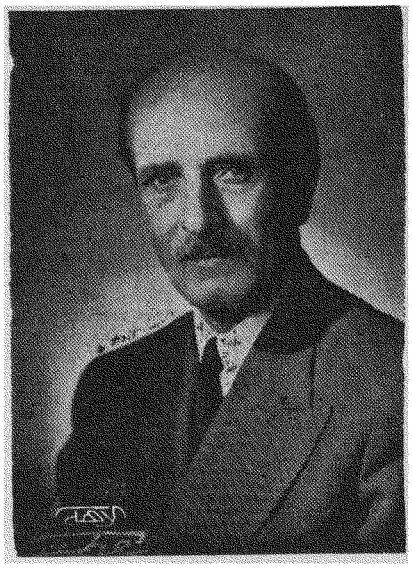

النقد والكلمة

بقلم ميخائيل نعيمه

الحرف ، ومن الحرف الكلمة ــ تلك ، في اعتقادي ، هي معجزة الانسان الكبرى ، ولكنها معجزة ألفها الناس الى حد ان باتت عندهم وكأنها من اتفه التوافه . وذلك هو شأن الناس مع العجائب التي تكتنفهم في عالم كل مافيه عجيبة . فهل ادهى من ان تأخذ حروفا لاقيمة لها في ذاتها ولا معنى ثم تزاوجها بهذه الطريقة او بتلك فاذا بها كلمات ، واذا الكلمات عوالم تضج بالحياة والحركة ، وتموج بشتى الاحاسيس والافكار ، والاشكال والالوان ؟

هاك ، على سبيل المثل ، حروفا ثلاثة : ب.ح.ر. ــ انها حروف واهية ، جامدة ، ميتة ، وانت لو رددت كلا منها بمفرده ، ولو حدقت اليها منفصلة من الان وحتى قيام الساعة لما وقعت فيها على اي شيء يحرك فيك فكرا ، او يثير احساسا ، او يرسم صورة . ولكنك حالما تصل الاول منها بالثاني والثاني بالثالث تتكون لديك كلمة « بحر » . وهنا تتم المعجزة ، ففي اسرع من رفة الجفن تراك امام مدى ازرق تتواثب فيه الامواج وتتدافع ، وتزبد وترغي ، وتهدر وتزأر ، ثم ترتطم بالشاطىء فتتكسر وتتقهقر ؟ولكنها لاتلبث أن تعود الى الهجوم من جديد . وقد تكون انت ، ساعة تسمع او تقرأ كلمة « بحر » ، على بعد الاف الاميال من أي بحر .

وتمضي تبدل في تزاوج الحروف الثلاثة فاذا البحر « حرب » او « حبر » او « حبر » او « ربح » او « رحب » او « برح » او اشياء اخرى قد لاتخطر لك في بال ، ولكنها تخطر في بال القاموس ، وكلها يزخر بالمعاني والصور ، اوليس في ذلك مايشبه السحر ؟

ان يكن في تزاوج الحروف ضرب من السحر فالسحر ، كل السحر ، في تزاوج الكلمات بحيث تغدو عبارات ، ثم في تزاوج العبارات بحيث تؤلف الصفحات ، وتؤلف الصفحات المجلدات ، ثم تؤلف المجلدات المكتبات التي يختزن الناس فيها كل ماوعوه واختبروه من شؤون حياتهم على الارض منذ الاف الاجيال . والذي وعاه الناس واختبروه على كر الاجيال هو مايدعونه المدنيات والحضارات .

هذه الكلمة العجيبة التي تبني المدنيات والحضارات هي وحدها عدة الاديب يتصرف بها حسبما يمليه عليه فكره وخياله ومزاجه وذوقه ، وهو اذ يخلق منها قصيدة او مقالا او قصة او غير ذلك من ضروب الادب انما يخلق ، في الواقع ، جانبا من نفسه . ذلك لان الكلمة والمتكلم واحد ونحن لاندري ايهما الخالق وايهما المخلوق . فالذي نفسه في ضباب لايمكن ان ينطق او يكتب غير الضباب . والذي نفسه فاجرة يأتيك بالادب الفاجر . والذي يعيش في ضحاضيح من الفكر والاحساس والخيال يتعذر عليه ان يحملك الى الاعالي والاغوار . والذي نفسه عشواء أو مزكومة ، او في اضطراب لايستطيع ان يفتح عينيك على ما في الحياة من بديع الصور ، ولا انفك لما فيها من طيب الشذا ، ولا اذنيك لانغامها الساحرة .

ولولا ان الكاتب يعرض عليك وعلي مايكتبه لما كان لي ولك ان نحاسبه عما يكتب . ولكنه عندما ينشر مايكتب يجعل من نفسه مشاعا لكل من يقرأه ، فكأنه يدعوني ويدعوك الى مشاركته في ماخلقه من نفسه على انه بعض من نفسك ونفسي كذلك ، واذ ذاك فمن حقك وحقي ان نقول له الى اي حد نشاركه اولا نشاركه ؟ او الى اي حد ننسجم واياه او لاننسجم .

اقول من حقك وحقي ، ولا اقول من واجبك وواجبي . لان في استطاعتك واستطاعتي ان نقرأ وان نسكت عما نقرأ . والسكوت من ذهب حتى في شؤون الفن والادب ، الا ان معظم الناس لايطيقون السكوت . فهم ابدا يحدثون عما بينهم وبين الاشياء والاحداث والناس من انسجام او عدم انسجام . فحيثما كان الانسجام كان الحديث حديث رضى وانشراح واطمئنان . وحيثما انفقد الانسجام كان الحديث تافقا وشكوى وامتعاضا ، ولا يندر

ان يكون شتيمة وسبابا . من هنا كان النقد وكان الناقدون.

عندما يحدثك الناقد عن اثر ادبي فهو انما يبين لك مدى التجاوب بين نفسه ونفس الكاتب في ذلك الاثر بالذات . فنقده اما انشراح واما امتعاض . او هو انشراح هنا وامتعاض هناك . وما اكثر ماينشرح ناقد حيث يمتعض الاخر . او يمتعض حيث ينشرح . ولا عجب في ذلك على الاطلاق . فالكلمة التي هي عدة الكاتب ، مثلما هي عدة الناقد ، ليست ذات دلالة واحدة ، ولون واحد ، ونغم واحد ، ورائحة واحدة عند جميع الناس ، ذلك لان الذين ينطقون بها ، او يكتبونها ، ليسوا من مزاج واحد ، ولا هم في مرتبة واحدة من الفهم والذوق والاحساس وقدرة الانفعال والتخيل . والكلمة التي تبدو لك في القاموس كما لو كانت محدودة القياس والمعنى تغدو وكأنها بغير حدود عندما ينطق بها لسان او يخطها قلم . فحدودها اذ ذاك حدود فهم الناطق او الكاتب وحدود ذوقه وخياله ومقدرته على تحسس المعاني والالوان ، والروائح والانغام .

ومثلما يشق عليك ان تقع على كاتبين في مستوى واحد من ذاك القبيل ، كذلك يتعذر عليك ان تقع على قارئين ، او ناقدين ، يتذوقان اثرا ادبيا واحدا بطريقة واحدة . فمزاج الواحد غير مزاج الاخر ،وخبرته غير خبرته ، وذوقه غير ذوقه ،والزاوية التي ينظر منها الى الحياة غير زاويته . ولو ان الناس تساووا في ذلك كل المساواة لما كان بهم اقل حاجة الى النقد والناقدين .

وكما يخلق الكاتب نفسه في مايكتب يخلق الناقد نفسه في ماينقد . وما الاثر الذي ينقده غير الحافز والمشحذ . اما النور الذي يلقيه على ذلك الاثر فنوره . وهذا النور قد يكون نور شرارة ، او ذبالة ، او فرقد ، او قمر ، او شمس ، وقد يكون نارا في هشيم . وذلك هو مبعث الفوضى في دنيا الكتابة ودنيا النقد .

فما اكثر مايتصدى ناقد نوره نور الشرارة لنقد اثر نوره نور الشمس ، واذا النتيجة مهزلة ومأساة في آن معا. فالشرارة لاتحجب الشمس ولا تطفئها ولا تزيد في نورها . اما الشمس فتبتلع الشرارع . وقد يحدث ان ينبري ناقد نوره نور الشمس لنقد كاتب نوره نور الذبالة . فتكتسب الذبالة ، ولو الى حين ، ألقا ليس لها . مثلما قد يحدث ان يلقي ناقد بشرارته في كومة من الهشيم فتندلع منها السنة النار عالية ، باهرة صاخبة . ولكنها لاتلبث ان يخبو لظاها، فاذا بها رماد في رماد .

هكذا كان . وهكذا سيكون مادامت الكلمة مشاعا للجميع وما دام التفاوت في الفهم والذوق والمزاج بين الناس كالتفاوت بين الشرارة والشمس . ولن يجديك اي نقد مع الذين نورهم غير نورك ، واتجاههم في الحياة غير اتجاهك . وقد يجديك الصبر . ويجديك اكثر من الصبر التفكير في حكمة الحياة التي تخلق الارزة والعوسجة ، والنسر والخفاش والشمس والحباحب فلا تخجل ولا تندم . بل تجعل لكل ماتخلقه قيمة في ذاته ، وقيمة متممة لقيمة غيره . فالغابة لاتقوم بما فيها من سوامق الشجر ، بل لابد مع السوامق من الاشواك والادغال واللبلاب .

كذلك لايقوم الادب بالعباقرة والروائع فقط ، بل لابد مع عباقرة الكتاب من الكويتبين ، ومع الروائع من التوافه. مثلما لابد من نقاد لاينتشون الا بعبق العبقرية وروعة الروائع . ومن نويقدين يتلهون بتوافه الكويتبين ويصنعون من الحبة قبة .

اما السر في هذا التفاوت العظيم فيكمن في طبيعة المعجزة التي هي الكلمة ، وطبيعة الذين يتخذونها اداة للتفريج عما في نفوسهم . فالذين اوتوا نعمة الفهم والذوق يقدسون الكلمة . فتأتي على السنتهم واقلامهم طاهرة من النفاق ، منزهة عن الحذلقة والبهرجة والدجل والرياء وحب الظهور . والذين نصيبهم من الفهم والذوق ضئيل لايحسون قدسية الكلمة. فلا يتورعون عن الفحش بها ، وعن جرجرتها في الرغوة التي تثيرها اهواؤهم من ساعة لساعة ومن يوم ليوم .

تلك ،كما ترى ،هي طبيعة الكلمة ، وطبيعة الذين خلقوها ليعودوا فيخلقوا انفسهم بها . وهي طبيعة لايغيرها سحر ساحر ، ولا نقد ناقد ، ويغيرها كل منا بجهده الخاص اذا هو غير ما بنفسه .

ميخائيل نعيمه

كل عربي مدعو
الى قراءة هذا الكتاب
القدس مرة اخرى
للكاتب الفلسطيني الجريء
محمد علي العبد
قصة الوطن السليب والشعب اللاجئ المضطهد .. وصيحة الكفاح من اجل العودة والثأر في اسلوب ادبي جمع بين الروعة في العرض والثورة في الموضوع

الثمن ١٥٠ ق.ل

منشورات مكتبة المعارف في بيروت